محمد حسنين هيكل
السقوط فى جب التحيز

تحدث الأستاذ هيكل فى باريس حديثاً مطولاً عن مصر والعالم العربى، تعرض فيه بالنقد لشعار "الإسلام هو الحل"، الذى رفعه الإخوان المسلمون. وفى السطر الأول من كلامه عن هذا الشعار رفضه رفضاً باتًّا. وقال: إن "الإسلام ليس الحل"؛ ونحن هنا نريد أن نرى ما فى كلامه من الحق والباطل، والصواب والخطأ، بموضوعية، ودون تحيز. ولا أمل عندى فى إقناع هيكل، وإنما أريد أن أضع الحقائق بين يدى القارئ المسلم، طالما أن كلام هيكل قد نشر فى مصر على أوسع نطاق، مع هالة من التعظيم لشخصه ولآرائه.

نص كلامه:

ولكى يشاطرنى القراء النظر والرأى سأضع نص كلامه حرفيًّا بين أيديهم، وبعد ذلك نشرع فى مناقشته.

يقول الأستاذ هيكل: "اعتقادى أنه فى مصر، وفى غير مصر من بلدان العالم العربى، أن "**الإسلام ليس هو الحل**"، وإنما هو النور والهداية التى يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل. واعتقادى أن الإسلام –شأنه شأن كل دين مقدس– ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهيئ للعقل الإنسانى ممارسة حقه فى اختيار الحل، أقصد أن الشريعة الإسلامية–وكل شريعة دينية–لم تفرض سلفاً على المجتمعات كيف تدير علاقاتها مع غيرها، ولا كيف تدير أمورها الاقتصادية والاجتماعية، ولا كيف تحقق العدل والحرية والمساواة فى الفرص لأهلها، ولا كيف تستطيع تحصيل العلوم وامتلاك التكنولوجيا. وإنما الدين –كل دين– نور يضىء طريق المؤمنين به حتى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يرون فى تلك المجالات وغيرها، ثم يكون حسابهم أمام خالقهم على استعمال عقولهم أو تعطيلها."

هذا هو النص الأساسى فى كلامه عن شعار "الإسلام هو الحل"، وتيسيراً على القراء أحدد القضايا التى يثيرها هنا :

(١) هو أولاً ينفى أن يكون فى الإسلام أى حل لأية مشكلة من أى نوع كان، من تلك التى تواجه مصر؛ بل هو يعمم حكمه ليشمل العالم العربى كله، ربما لأن شعار "الإسلام هو الحل"، قد انتشر فى العالم العربى؛ فهو يوسع من نطاق النفى ليشمل الرقعة نفسها، فيكون شعاره ضد شعار التيار الإسلامى وعلى مقاسه الجغرافى!

(٢) وهو ثانياً يقرر أن الإسلام مثل أى دين آخر، لا يزيد عن أى دين شيئاً؛ يعنى مثل اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوكية. والشريعة الإسلامية مثل أية شريعة دينية أخرى، لا تمتاز بشىء ولا تتميز بشىء. وهو يؤكد هذا المعنى ويكرره ثلاث مرات فى هذه الفقرة.

(٣) وهو يقرر أن الإسلام هو النور والهداية التى يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل بأية مشكلة. ومن الجلى أن " النور" هنا يستخدم مجازيًا؛ كما أن طبيعة "الهداية"، لم تحدد؛ فلم يذكر مثلاً أنها قيم أخلاقية، أو مثل عليا، أو عقائد دينية، أو شريعة ونظم وقواعد. كذلك لم يحدد هيكل الحل، وهل هو نظريات فلسفية أو نظم بشرية وضعية رأسمالية أو اشتراكية، أو غير ذلك.

(٤) والإسلام عند هيكل ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهيئ للعقل الإنسانى ممارسة حقه فى اختيار الحل، وهو يشرح هذا فيقول إنه لم يفرض على المسلمين كيف يديرون مواردهم؛ يعنى الشريعة لا تفرض واجبات أو قواعد لاستثمار موارد الأمة وإدارة ماليتها؛ ولا بينت لهم كيف يمكن تحقيق العدل!

(٥) والإسلام كأى دين آخر يضىء الطريق للمؤمنين به لكى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يشاءون.

(٦) وسوف يحاسب الله الناس على تعطيل عقولهم أو تشغيلها.

● ونحن نأخذ عليه أنه ينفى أن يكون الإسلام هو الحل تعسفيا، أى بدون براهين من أى نوع. وكان عليه، إن أراد التزام مناهج الكتابة العلمية الرصينة، المقنعة،

obeikandi.com

أن يقدم لقارئه أو سامعه قائمة بمشكلات مصر الأساسية، وأخرى بمشكلات العالم العربى، ثم يعرضها على الإسلام قرآناً وسُنّة، ويثبت أنه لم يجد حلاً لأية مشكلة منها. لو فعل ذلك لقدم لنا علماً، وتحليلات علمية لها وزنها، لكنه للأسف لم يفعل، وبدأ بتقريراته، ونفيه، دون أن يورد دليلاً من أى نوع! **وعلى هذا نقول: إن كلامه لا يعدو أن يكون مجرد مزاعم شخصية لا قيمة لها ولا وزن بمعايير المناهج العلمية. هى مجرد معارضة سياسية تعسفية للتيار الإسلامى من جانب رجل يعادى هذا التيار منذ خمسين عاماً**، حين كان هو المبرر والمسوغ لاستبداد النظام الناصرى الشمولى وعدوانه المتكرر على أصحاب الشعار الذى يعارضه هيكل اليوم! وسوف نرى بعد قليل أن الإسلام هو حقًّا وصدقًا الحل لمشكلات مصر والعالم العربى، وأنه قد حل، ويحل الكثير من هذه المشكلات، على الرغم من "الأخذ الجزئى" له فى مصر والعالم العربى والإسلامى.

إن الدين عند الله الإسلام:

والإسلام، على نقيض مزاعم هيكل، ليس مثل أى شريعة أخرى. فالإسلام دين يخاطب العقل، ويقنعه، ولا يلجأ إلى المعجزات؛ حتى الإسراء والمعراج المعجزة الكبرى لنبينا ﷺ، لم يكن المقصود منها إقناع الناس بصدق محمد؛ ولو أريد لها أن تكون كذلك لتمت نهاراً، لا ليلاً. من هنا وجدنا الإسلام يزدهر مع تقدم التعليم، فى حين تتهاوى الأديان الأخرى للسبب نفسه! والإسلام دين التوحيد المصفى، النقى، البرىء من كل شوائب التشبيه والتمثيل والحلول والتعدد والإثنية. ومن هنا كانت قدرته على مخاطبة المفكرين والمثقفين والعلماء المحدَثين، فى حين تنتشر الفلسفات الملحدة بين غير المسلمين.

والشريعة الإسلامية ليست مثل أية شريعة أخرى، من حيث شمولها لكل جوانب الحياة البشرية، ورعايتها للعدالة الاجتماعية، وقدرتها على رعاية الطبقات غير العاملة، والفقيرة، وعلى استيعاب كل جديد فى حياة الأمة المسلمة عن طريق الاجتهاد استناداً للأصول القرآنية والحديثية. ونحن نسمع عن مشكلات الزواج والطلاق فى أوربا وأمريكا، وكيف تمردت الشعوب على شريعة دينهم التى تمنع الطلاق وتعدد الزوجات، فاستعاضوا عنها بإباحية شاملة، امتدت إلى الزنا بالمحارم،

وإباحة فعل قوم لوط، وكل ضروب الزنا والبغاء؛ كما أن شريعتنا تخلو من أية تفرقة عرقية أو ثقافية ظالمة.

والشريعة الإسلامية تقدم للمسلمين دستوراً كاملاً، ونظاماً قانونيًّا شاملاً، وأخلاقيات وقيماً سامية، تضمن إنشاء مجتمع إنساني رفيع، راق، آمن، سعيد، يعبد الله تعالى ويأمل في جنته. وهي مطبقة جزئيًّا في حياتنا الراهنة؛ وكانت سرًّا من أسرار النجاح في هذه الحياة واستقرارها. فعلى هيكل أن يأتي ببرهان إن كان لديه برهان، على تساوي شريعتنا الغراء بالشرائع الأخرى، وهيهات أن يفعل!

النور والهداية:

والإسلام نور وهداية دون ريب، ولكن ليس بالمعنى المجازي المائع غير المحدد الذي أراده هيكل. الإسلام نور وهداية للمسلمين في عقائدهم الدينية، وفي الشريعة السمحة العادلة، وفي أخلاق الإيثار النبيلة السامية. الإسلام نور وهداية يتجسدان في تعاليم محددة، وشرائع، ونظم، وفضائل أخلاقية، تبين للمسلم كيف يفكر، وكيف يعبد ربه، وكيف يتعامل مع زوجته وأهله، وماله عليهم، وما لهم عليه، وكيف يتعامل مع الناس في كل مجالات الحياة الاجتماعية والمادية والمالية، بحيث لا يظلم، وبحيث لا يُظلم، وبحيث يعرف الفرض والواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، في كل قول وعمل. وكل مشكلة تواجه المسلم لها الحل الشرعي السديد المحدد. والجماعة المسلمة، كالفرد المسلم، تجد الحلول لمشكلاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية في الكتاب والسُّنّة؛ ولها الحق، بل عليها واجب الاجتهاد لمعرفة الحلول للمشكلات المستجدة، على أصول الإسلام. فالنور والهداية والضياء ليست كلاماً إنشائيًّا في الإسلام، بل له معناه المحدد بكل دقة. ولذلك نرفض محاولة هيكل الإنشائية الخطابية هذه لتمييع مفهومنا للإسلام وشريعته.

قضية العقل:

ولقد مس هيكل قضية العقل، ودوره، وصلته بالدين مسًّا سريعاً، وخاطئاً. والقضية قديمة متجددة؛ وفيها كتابات غزيرة وعميقة، منذ عهد الفلاسفة المسلمين القدماء كابن سينا والفرابي والغزالي وابن رشد، وقد أضاف المحدَثون الكثير، ابتداءً من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ثم المودودي والندوي وسيد قطب والعقاد

والرافعى، وغيرهم. والقضية هى: ما مصادر المعرفة ؟ هل الوحي مصدر معترف به عند الكاتب أم لا ؟ وعند التعارض بين العقل، أو (التجربة البشرية عامة) والوحي، لمن تكون الكلمة العليا؟ مثلاً، إذا زعم العلم الحديث أن الأحياء لا تتولد من الجمادات، وقال الإسلام إن الله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ (الأنعام: ٩٥) فمن نُصدّق؟ أو كيف نوفق بين المصدرين؟ هذه القضية الواسعة الكبرى، المتشعبة، والخطيرة، يدلى فيها الأستاذ هيكل بكلام خاطئ لا أصل له، ولا قيمة، ولا وزن، فيزعم أن الإسلام ضياء يهيئ للعقل ممارسة حقه فى اختيار الحل!

هذا مسلك مؤسف، ومُضلل! والعلم برىء منه؛ والفكر الموضوعى والتحليل المنهجى لايجيزانه ولا يعترفان به. ثم يشرح الأستاذ هيكل رأيه فى الإسلام والعقل فيتورط فى أخطاء علمية وشرعية جسيمة. فلقد أفرغ الشريعة من كل مضامينها. فليس فيها - بحسب زعمه - قاعدة تفرض على المسلمين كيف يديرون علاقاتهم مع غيرهم من المجتمعات؛ وليس فيها قواعد لتنظيم كسب الثروة المالية وإنفاقها واستثمارها؛ وليس فيها مبادئ تحدد مفهوم العدالة أو تحدد نطاق الحرية؛ وليس فيها كلمة عن العلم والتقنية!

ولبيان مضامين الشريعة الغراء التى تكذب هذه المزاعم يحتاج المرء - دون مبالغة - إلى مجلدات! فالعلاقات الدولية فى الإسلام فيها مراجع عديدة، كلها تستند إلى القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الصحيحة. وربما كان كتاب الشيخ أبى زهرة رحمه الله فى الموضوع من أحدث ما كتب فيها. وأما الحياة الاقتصادية والمالية ففيها مئات المصادر الحديثة والقديمة. وأنا شخصيًا لى كتابان حول النظام الاجتماعى فى الإسلام؛ وهو نظام أساسه العدالة الاجتماعية، بمعنى: ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: ٣٨، ٣٩). والأخلاق بمعنى: العطاء بلا مقابل: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٩). وهذه المبادئ تحققت، ولا تزال تتحقق، فى الحياة الاجتماعية للأمة المسلمة، وفى حياة الأفراد وسلوكهم. وهى مصدر كل سعادة، وحل لكل مشكلة، ومرجع للحكم فى كل قضية، ومعيار لحسم أى خلاف، وهى سر تماسك مجتمعنا على الرغم من كل عوامل الانهيار.

فمضمون شريعتنا السمحة بالغ السّعة، والتنوع، والشمول، والعمق، وهى تغطى كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا. واحترامها يضمن لنا الرضا، والأمن، والقبول فى المجتمع المسلم، والأمل فى مرضاة الله تعالى فى الآخرة. وانتهاكها أو تجاهلها يفجر المشكلات والمتاعب لنا. لكن الأستاذ هيكل لا يرى من هذه الثروة المهولة شيئاً، وينكر كل مضامينها، ليقول لنا إن الإسلام نور يضيء الطريق، وكفى! ترى، هل يخدعنا بهذه الألفاظ أم يخدع نفسه؟

ثم يقول إن الله تعالى سوف يحاسب الخلق على تعطيل العقل أو إعماله. ولكن كيف يحاسبنا الله تعالى بدون وجود قواعد تبين الحلال والحرام؟ وهل تعطيل العقل هو المعصية الوحيدة؟ إن أبالسة البشر جميعاً لا يعطلون عقولهم، فهل يدخلون الجنة لمجرد تشغيل العقول؟! ألا توجد عقيدة يحاسب من يفرط فيها، ويثاب من يؤمن بها؟ ألا توجد فروض ومندوبات ومحرمات فى كل نواحى الحياة؟ ألا توجد عبادات، لها أصول وقواعد؟

عند الأستاذ هيكل لا ذكر لشيء من ذلك! الحساب أمام الله على "العقل" فقط! وهو لم يقل كلمة واحدة عن كيفية تشغيل هذا العقل، ولا عن القواعد والمناهج التى تحرره من الشهوات التى تسيطر عليه وتقسره على أن يتحدث باسمها!

قضية حرية الإرادة:

ويكتب الأستاذ هيكل سطراً أو سطرين عن قضية الإرادة والحرية! وكلامه لايكاد يبين! وكما هو معلوم لدارسى الفلسفة، تعد قضية الحرية من أعقد القضايا، بسبب تعدد مجالاتها، واتصالها بالقضاء والقدر، الجبر والاختيار؛ وكذلك على المستوى العملى الواقعى، تتصل بالنظام السياسى والاجتماعى والثقافى ومدى سعة مجالات الحرية الفردية فيه... إلخ

ومن الجلى أن الإدلاء برأى فى هذه القضية يحتاج إلى مجال آخر أوسع من مجرد فصل فى كتاب. ومع هذا نقول إن كلام هيكل خاطئ، فضلاً عن أنه قاصر. والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ (الأحزاب: ٣٦) فالمسلم اختار الإسلام؛ والإسلام معناه الطاعة لله ورسوله؛ فإذا أمر بعمل أتاه راضياً، وإن لم يكن قد اختاره؛ وقد يكون يشتهى

obeikandl.com

ألا يعمله، أو يعمل ضده، لكنه يستجيب لأمر الله ويطيعه، ولا يرى في هذا إلا الخير.

الإسلام هو الحل لهذه المشكلات:

(١) مشكلة الازدواجية الثقافية:

والآن نستعرض بعض المشكلات الكبرى التي تواجهنا والتي يحلها الإسلام، ولا يحلها أي نظام علماني. ولعل أخطر المشكلات تتمثل في "الازدواجية الثقافية" التناقضية، التي شقت صفوفنا إلى أمتين متعارضتين: أمة مسلمة، تأخذ بالإسلام كاملاً شاملاً، وأمة علمانية ترفض الإسلام، أو تقبل منه عناصر لا ترى فيها تعارضاً مع مذهبها العلماني وترفض كل ما عداها. والحل هو تصفية الثنائية، وبلوغ الوحدة الثقافية (والتنوع داخلها). وهذا يقتضي أحد أمرين: فإما أن ننحي الإسلام، وإما أن ننحي المذاهب العلمانية. وتنحية الإسلام شبه مستحيلة في أمة مؤمنة به، ولا ترى له بديلاً بحال.

ثم إن الإسلام يتسع لكل مزايا النظم العلمانية، كالديموقراطية وحقوق الإنسان، والتقدم العلمي. وتكلفة تنحية الإسلام باهظة. ونحن الآن نرى تجارب عديدة في مصر والجزائر. والدماء تسيل بغزارة، والأموال تهدر عبثاً، والاحتقان العام يتزايد مع كل محاولة لتقليص المضامين الإسلامية في التربية والتعليم، أو المساس بالإسلام في الإعلام والثقافة. **فلا حل للثنائية إلا بالأخذ الكامل للإسلام، ونبذ كل ما يتعارض معه، ووضع حد للاجتزاء الخبيث الذي ينتقي عناصر ويجحد أخرى.** ومن المؤسف أن أقول إن السياسات الراهنة تتجه إلى تصفية الإسلام، لا العلمانية. ولذلك أتوقع أن تزداد المشكلة حدة، لأن الدولة تتجه بقوة ضد إرادة الجماهير على مستوى النخبة وعلى مستوى العامة.

(٢) مشكلة التبعية:

ويتصل بالمشكلة السابقة مشكلة أخرى هي مشكلة التبعية القومية والوطنية، وضياع الاستقلال. وهيكل نفسه يشكو من تبعية البلاد لأمريكا؛ ولم يقدم حلاً.

openkanotic.com

والتمسك بالإسلام كاملاً هو الذى يضمن لنا الاستقلال فى الفكر والعمل جميعاً؛ إن اعتناق البراجماتية - أى الفلسفة الأمريكية النفعية - سيلحقنا بأمريكا نظريًا، ثم عمليًا. وذلك خطر كبير، توجست منه دولة كبرى مثل فرنسا، وأعلنت الحرب عليه! وأمريكا لا تعترف إلا بمصالحها؛ وهى تملى إرادتها على الأتباع، بدون مناقشة، كما قرر هيكل فى مقاله. وهذه الشركات العملاقة، العالمية، شرعت تسيطر على اقتصادنا، وتمتص دماءنا. ومسلك الأتباع، لا الحلفاء، فى المنطقة يشهد بأنهم ضيعوا استقلال بلادهم، فهم يحاربون بالأمر، ويسالمون بالأمر، ويبذلون بسخاء بالأمر، ويقبضون أيديهم بالأمر! والترتيبات تتخذ لإخضاع العالم كله لإرادة أمريكا تحت مسمى "الكونية"! والعمل يجرى على قدم وساق لاستبعاد العروبة والإسلام وإحلال كيانات جغرافية محلها، تسيطر عليها أوروبا وأمريكا وإسرائيل! ولا حل لهذه المشكلة إلا بالتمسك بالإسلام وعقيدته، وفكره، وتطبيق شريعته وأخلاقياته. والسعى للتكتل والتوحد والتعاون مع الدول العربية والإسلامية. ولسوف تحترمنا أمريكا ساعتها، لأنها لا يمكن أن تخاطر بمصالحها عندنا.

(٣) المظالم الاجتماعية :

ونحن اليوم نعانى من مشكلات الفقر والمظالم الاجتماعية التى أطاحت بنسبة هائلة من شعبنا تحت مستوى الفاقة، وحولت نسبة أخرى كانت مستورة، أو معدودة من الأغنياء، إلى دائرة الفقر. وتلك نتائج تجريب الاشتراكية، ومن قبلها الليبرالية الملكية. ولولا إيمان الشعب بالإسلام، بما يفرضه من تكافل اجتماعى وعائلى، وزكاة، وصدقات، لانهار المجتمع المصرى ودمرته القلاقل. وهذه الحقيقة هى التى جعلت الخبراء العالميين يتعجبون من استمرار تماسك المجتمع المصرى، على الرغم من كل المشكلات الاقتصادية العاتية. وهيكل نفسه كتب هذا يوماً، ولم يدرك أن الإسلام هو الذى يعالج آثار المظالم والفشل الاقتصادى، وغياب العدالة الاجتماعية، على الرغم من رفض الدولة الأخذ الكامل الشامل له. فالعاطل والعاجز واليتيم يجدون النفقات الضرورية من الأهل والأرحام والمزكين المنفقين.

(٤) المخدرات، من يحمينا منها؟

والإسلام هو الذى حل مشكلة المخدرات وإدمان الخمر للذين يحترمون شريعته من بنى جلدتنا. بل إن أعداداً غفيرة من شباب الإسلام ترفض التدخين؛ وبعضهم لا يشرب القهوة والشاى، ويصر على تناول المشروبات الوطنية. وأحسب أننى لست بحاجة إلى القول إن مشكلة المخدرات وإدمان الخمور، والجريمة التى تتصل بهما، هى من أخطر مشكلات العالم المعاصر، وأعقدها. وهى تستنفد جهوداً طائلة واعتمادات مالية باهظة وتلحق أضراراً مهلكة بالأفراد والجماعات، صحيًّا وأمنيًّا؛ والعالم يقف عاجزاً إزاءهما. هذه المشكلة العظمى حلها الإسلام حين حرم الخمر والخبائث على المسلمين وبذلك نجا منها كل مسلم ملتزم بدينه. فهل ينكر هيكل هذه الحقائق؟ هل يستطيع أن يقول إن الإسلام ليس الحل لهذه المشكلة؟

لقد حلها الإسلام حقًّا وصدقاً. وليس مجرد رهان على المستقبل. وهذا كفيل بإسقاط الزعم الرئيسى فى كلام هيكل؛ أعنى قوله: "الإسلام ليس الحل لأية مشكلة"، لقد حَلَّ الإسلام بعض مشكلاتنا، من الباطن، أى بالعقيدة والأخلاق، لا "من الخارج" بالشرطة، كما يفكر الأوربيون والأمريكيون، وقد لاحقهم الإخفاق. وهذا هو "ريمون كيندلا" سكرتير عام الإنتربول يستغيث لانتشال إدارات مكافحة المخدرات، من إدمان تلك المخدرات، التى تهدد المجتمع الدولى. وتشير إحصاءات الأمم المتحدة إلى أن تجارة المخدرات تبلغ ٤٠٠ مليار دولار سنويًّا، حسب كلام "كيندلا"؛ وهذا البلاء العظيم يتسبب فى ٥٠٪ من الجرائم فى المدن الغربية الكبرى. (الأهرام: يوم ٢ / ١٠ / ١٩٩٥) ترى ماذا كان يمكن أن يلحق بنا من المصائب، نحن أبناء العالم الثالث، الأميين، الجهلة بكل التدابير الوقائية؟ من المؤكد أن الأخطار كانت ستكون أضعافاً مضاعفة. وقد حاقت مثل تلك الأخطار بدول العالم الثالث غير المسلمة وأهلكتها.

(٥) من يحمينا من الإيدز؟

ثم نصل إلى مشكلة طاعون العصر، أعنى مرض نقص المناعة "الإيدز" وقد ذكرت مصادر طبية أمريكية يوم ٩ / ١١ / ١٩٩١ أنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيكون فى

obeikandi.com

العالم حوالى ٤٠ مليون مصاب بالإيدز. وذكرت المصادر الطبية أن الدعارة تلعب دوراً كبيراً فى نشر المرض. وتقول المصادر الرسمية إن الفوضى الجنسية هى سبب الانتشار الوبائى للإيدز، لأن ٨٣٪ من حالات العدوى ترجع إلى الشذوذ الجنسى والبغاء والجنس الحرام والفحشاء.

ومن الملاحظات البارزة أن المرض محدود الانتشار بين المسلمين بسبب انضباطهم الأخلاقى. فإفريقيا جنوب الصحراء يحصدها الوباء؛ فى حين أن شمال إفريقيا يعد من أقل مناطق العالم إصابة بهذا الوباء. **أى أن الإسلام بعقائده وشرائعه وأخلاقياته هو السد المنيع الذى يحمى أمته من ذلك الوباء. فهل ينكر هيكل أو غيره هذه الحقيقة ؟!**

● هذه عينة من المشكلات التى حلها الإسلام فعلاً، على الرغم من التطبيق الاجتزائى المشوه له، الأمر الذى يحبط مفعوله إلى حد كبير. وأظن أن هذه العينة كفيلة بدحض افتراءات هيكل وبيان تهافت مزاعمه ضد شعار "الإسلام هو الحل" و"الإسلام حياة كاملة".

* * *

obeikandl.com

الدكتور طه حسين
وخيالاته الجامحة

حديث إفك

الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى، ورائد الفكر المصرى الحديث فى القرن العشرين. وكلما مرت ذكرى وفاته تحدث عنه أتباعه والمعجبون به فرفعوه إلى أعلى عليين. وأنا هنا لا أريد المساس بمكانته ولا بعمادته، ولا أبتغى إنزاله من عليائه. كل ما فى الأمر أنه فى بعض مؤلفاته تحدث عن أخلاقيات أبناء الصحابة والتابعين ﷺ وعن أخلاق حجاج بيت الله الحرام حديثاً منكراً باطلاً، فوجبت مناقشته.

فى كتابه "حديث الأربعاء" الذى نشرته دار المعارف المصرية، وكان مجموعة مقالات نشرت فى الصحف قبل ذلك، أعلن الدكتور طه حسين أنه يدرس طائفة من الشعراء فى العصرين الأموى والعباسى، **اختارهم من الفُجار المُجّان دون سواهم**. وهو يلخص صورة ذلك العصر فيقول: "إنه عصر شك (فى الدين) وعبث ومجون. أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته"(١) ثم قرر أن دراسته: "لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحى هؤلاء الشعراء جميعاً، هى ناحية مجونهم وإسرافهم" وهو يصفهم بأنهم: "هم أصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة" (٢) فهو يستبعد كل الشعراء الجادين الكبار والصغار. ويركز دراسته على أهل المجون والفجور واللهو والعبث. وهو يغفل الشعر الجاد لهؤلاء المجان أيضاً، ولا يهتم إلا بما قالوه فى المجون والفجور و اللهو. وبعد هذا الانتقاء وهذا الاجتزاء الصريح يقول الدكتور: "إن هذا هو المنهج العلمى الذى يصور ذلك العصر على ما كان عليه".(٣)

ومن الجلى أن هذا المنهج الاجتزائى الانتقائى لا يمكن أن يصور ذلك العصر على حقيقته. فإن الانتقاء يضاد الصورة الشاملة الصادقة التى تضم كل الظواهر فى

---

(١) جـ١ ص ٧ ط١٢.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ص ٨.

عصر من العصور. وسوف نرى مقدار الخطأ فى هذا المنهج حين نضم الظواهر الإيجابية إلى الظواهر السلبية التى عرفها ذلك العصر. وسوف يتضح مدى التشوه فى صورة تلك الحقبة من تاريخ المسلمين حين نتعرف على بعض الإنجازات الشامخة المضيئة التى تمت فيها.

الطعن فى أخلاق أبناء المهاجرين والأنصار

ويصف الدكتور طه حسين أبناء المهاجرين والأنصار ﷺ "فيزعم أنهم هم الذين ذهبوا مذهب اللذة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة- حرسهما الله - وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل" .[١] وهو يطعن فى ضمائر العلماء والفقهاء والمفسرين، فيزعم أنهم كانوا يكرهون مجون أبى نواس، لكن ليس بسبب كراهيتهم للمجون ذاته بل لأن: " مقامهم وصناعتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ" .[٢] وهذا يعنى أنهم كانوا يعلنون غير ما يبطنون، وذلك هو خلق المنافقين، وكأن طه حسين شق صدورهم وعلم بما تكنه قلوبهم فأعلنه! وأبعد من هذا، صور طه حسين مكة المكرمة، والحرم المكى الشريف، كساحة للغزل الماجن الفاسق، وفى مواسم الحج ذاتها. وصور نساء المسلمين الحاجات فى صورة ساقطات باحثات عن العشاق! [٣] فيقول طه حسين: "فلم يكن ابن أبى ربيعة -الشاعر- يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامى للجمال. وكان إذا اقترب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة، وظهر فى مظهر الفتوة والقوة، وفارق مكة، فتعرض للحجيج فى طريق المدينة والشام والعراق، يتلمس نساءهم، ويتبين هوادجهم، ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف، فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك، كان "عمر" قد أحصى النساء اللاتى يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة. وكانت له رسل تعمل فى ذلك، فتأتيه المواعيد فى مكة حيناً وفى منى حيناً آخر، وكانت أحب ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم، حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف. هناك كان عمر بن أبى ربيعة يترصدهن، ومنهن من كانت تترصده، وهناك كانت تبتدئ الأحاديث لتتم بعيداً عن البيت" .[٤]

---

(١) حديث الأربعاء؛ جـ١ ص ١٨ ط ١٢.

(٢) نفسه؛ جـ٢ ص ٥٥.

(٣) نفسه جـ١ ص٣٠٩.

(٤) الموضع نفسه ص٣٠٩.

أبناء المهاجرين والأنصار: مجاهدون عظام

وقبل أن نورد شيئاً عن إنجازات أبناء المهاجرين والأنصار نستلفت الأنظار إلى أن طه حسين لم يأت بقائمة بأسماء المهاجرين والأنصار بل لم يذكر اسم واحد منهم، ولم يبين انتساب شاعر ماجن واحد إلى صحابى مهاجر أو أنصارى مدنى، وكان عليه ككاتب استجاز لنفسه تلك الاتهامات الفظيعة أن يقدم قائمة بالأسماء والأنساب يصل فيها كل فاجر وماجن بمهاجر أو أنصارى من أصحاب النبى ﷺ **وهذا ما لم يفعله عميد الأدب العربى، وبذلك ينهار أساس آرائه لتصبح مقولات فارغة.**

● والآن إليك أيها القارئ إشارات سريعة لإنجازات أبناء المهاجرين والأنصار.

(١) فى عام ٦١هـ ثار الحسين بن على - رضى الله عنهما - ضد الحكم الأموى الجائر الذى أحال الخلافة الراشدة إلى مُلك وراثى عضوض، وكان مع الحسين آلاف من الثوار.

(٢) وفى العام نفسه خرج ثائر عظيم آخر من أبناء المهاجرين هو عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - ضد يزيد بن معاوية، ومعه آلاف من المجاهدين من أبناء المهاجرين والأنصار من أهل مكة: "وعلا أمر ابن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: أما إذ هلك الحسين- عليه السلام- فليس أحد ينازع ابن الزبير".[1] وكاد ابن الزبير أن يطيح بملك بنى أمية ويعيد الخلافة الراشدة. ولم يكن بوسع قوم من المجان والفساق وأهل اللهو والعبث أن يقوموا فى وجه الحكام المستبدين المتجبرين من بنى أمية. كان الحسين ورجاله أهل تقوى وورع، وأهل غيرة وشجاعة، فقاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم، وكان الزبير ورجاله كذلك أهل صلاح ودين، وجسارة وشجاعة، وقاتلوا قتال الأبطال.

(٣) وثارت المدينة المنورة سنة ٦٣هـ ضد الحكم الأموى، وخلعت حاكمها عثمان بن محمد، كما خلعت الخليفة الظالم يزيد بن معاوية، وحاصرت من كان بالمدينة من بنى أمية. وكان قادة الثورة من أبناء المهاجرين والأنصار، وهم: عبد الرحمن بن زهير بن عوف (ابن عم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه)،

---

(١) تاريخ الطبرى ؛ أحداث سنة ٦١هـ.

وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان الأشجعى، وكان أميرهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى.[1]

(٤) وفى عام ٩٢هـ غزا الأندلس طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم فتح المسلمون فى العام نفسه مدينة طليطلة التى كانت من أعظم مدن الأندلس، وكانت تلك بداية إنشاء دولة إسلامية عظمى فى أوربا.

(٥) وفى عام ٩٣هـ غزا قتيبة بن مسلم "سمرقند" وافتتحها واندفع بعد ذلك شمالاً وشرقًا حتى بلغ سور الصين، وحقق انتصارات تشبه المعجزات.

هذه بعض الإنجازات العسكرية، الجهادية، الضخمة التى حققها أبناء المهاجرين والأنصار ومعهم المجاهدون. فهل كان بوسع قوم فساق فجار، أهل شرب وعبث ولهو أن يحققوا ذلك؟ أليس الأجدر بنا أن نقول بناءً على هذه الحقائق: إن ذلك العصر كان عصر جهاد وفتوحات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم كله؟ بلى، كان ذلك العصر العظيم فريداً فى هذه الناحية، وعلى الرغم من ذلك يجب على العالم الموضوعى ألاّ يغفل النواحى والظواهر السلبية التى كانت ملحوظة فيه. وقد أشرت توّاً إلى جريمة بنى أمية الذين أحالوا نظام الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض، وقد استحلوا فى سبيل ذلك الظلم والبغى والرشوة وسفك الدماء. ومثل هذا حدث فى العصر العباسى. وفى كل عصر ومصر كان هناك فساق وزناة وشاربو خمر وأهل عبث. وحتى عصر النبوة العظيم أقيمت فيه الحدود على زناة ولصوص وشاربى خمر، لكن هذه الحقيقة لا تسوغ بحال إنكار الإنجازات المعنوية والتربوية والأخلاقية والمادية لتلك العصور، والزعم بأنها كانت عصور عبث ومجون، لا لشىء سوى انحراف بعض الشعراء أو فساد بعض الحكام وبعض الأفراد. لكن طه حسين استساغ ذلك.

عصر علم وعلماء:

وفى العصرين الأموى والعباسى نشأت العلوم الإسلامية من تفسير وفقه وحديث وتوحيد وسيرة وتاريخ وأدب ولغة، فضلاً عن الترجمة، وازدهرت العلوم الرياضية، والطبيعية، وبدأت ترجمة الكتب اليونانية. وظهر الفقهاء العظماء: مالك

---

(١) المرجع السابق، أحداث سنة ٦٣هـ.

والشافعي وأبوحنيفة وأحمد بن حنبل. ولا يسعني هنا ذكر أسماء أولئك الأعلام العظام في مجال علم واحد فقط كعلم الحديث مثلاً. فإذا اتخذنا منهج طه حسين الانتقائي الخاطئ خرجنا بوصف خاطئ لتلك الحقبة، فقال الباحث في الفقه: إنه عصر الفقه وتشكيل المذاهب الفقهية. وقال الباحث في الفلسفة: إنه عصر الترجمة عن اليونان. وقال الباحث في علوم الحديث إنه عصر الحديث وتدوينه وعلومه وعصر المحدِّثين العظام. وهذه كلها صور جانبية أو جزئية لا يجوز أن تحل محل الصورة الشاملة لكل الجوانب الإيجابية والسلبية. وكل منهج يتصدى لوصف عصر من العصور استناداً إلى صورة جزئية، هو منهج قاصر، وغير علمي، ومشوه للحقائق.

تفتيش الضمائر:

وينفي طه حسين عن الفقهاء والعلماء والمفسرين في عصر أبي نواس غيرتهم على الفضيلة، ويزعم أن كراهيتهم لمجونه لم تكن بسبب كراهيتهم للمجون ذاته، بل لأن وظائفهم ومراكزهم في المجتمع هي التي كانت تضطرهم إلى ذلك! وهذا الاتهام بالنفاق يطلقه طه حسين دون تحديد أو تخصيص لينال كل عالم ومفسر وفقيه. وهذا هو الدليل الساطع على خطئه الشنيع، إذ يستحيل أن يكون كل العلماء على امتداد قرون—وهم آلاف مؤلفة—منافقين يبطنون غير ما يظهرون! وليس لدى طه حسين أية قرينة على نفاق أي عالم مسلم في ذلك العصر؛ فهو يلقي اتهاماته جزافاً، ويشكك في ضمائرهم اعتباطاً.

ونحن لا ننكر أن من العلماء من كان ينافق الحكام في تلك العصور، فهذه هي طبيعة البشر، أن يكون من بينهم المخلصون الشجعان، وأن يكون منهم المنافقون المدعون الذين لاتهمهم إلا مصالحهم فحسب. لكن هذه الحقيقة لا تعطي أي باحث الحق في اتهام الجميع بالنفاق والرياء، وتجريد كل العلماء من الإخلاص والشجاعة الأدبية والغيرة على الفضيلة والإنكار على المجان والفساق والعابثين وإن كانوا من الحكام والأمراء، **كأنه شق صدورهم واطلع على ضمائرهم فرداً فرداً، فوجدهم جميعاً منافقين لا يكرهون المجون بحق، بل لأن مقامهم في المجتمع كان يضطرهم إلى ذلك!**

وبوسعنا أن نورد عشرات الأمثلة لأولئك العلماء الأفذاذ الشجعان الذين أخلصوا دينهم لله، وتصدوا للحكام الظلمة، وتعرضوا لبطشهم وظلمهم. وأظن أن

مأساة الإمام أحمد بن حنبل على يدى الخليفة العباسى الظالم "المعتصم" المعتزلى، أنموذجًا للعالم الشجاع الذى لا يداهن ولا يساوم ولا يخشى فى الحق لومة لائم. ولقد عذبه "المعتصم" الذى كان يقف على رأس الجلادين يأمرهم بضربه بالسياط ويقول فى غضب: "شد! قطع الله يدك!" ومكث الإمام فى الحبس والضرب والإهانة ثمانية وعشرين شهراً، ثم نفاه "الواثق" بعد توليه الحكم. وبعد موت "الواثق" تولى "المتوكل" ورفع الحظر عن الإمام العظيم، بل حاول جاهداً أن يتقرب إلى الإمام،فرفض الإمام ضيافته بإصرار، ولم يأكل على المائدة التى أعدها له، وأبى قبول المال الذى بعثه إليه.

فهل هذا الإمام المجاهد العظيم منافق يبطن غير ما يعلن كما زعم طه حسين؟!

وكان الإمام مالك بن أنس: "ينقم على الخليفة المنصور العباسى جبروته وطغيانه، ولهذا كان يأتيه أهل المدينة يستفتونه فى الخروج "أى الثورة" مع محمد المعروف- بالنفس الذكية- ويقولون إن فى أعناقهم بيعة لأبى جعفر المنصور (الخليفة العباسى) فيقول: "إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين."[1] فالبيعة كما أفتى مالك يجب أن تكون حرة وإلا فهى ليست بيعة. وكان "جعفر بن سليمان بن على" والياً على المدينة من قبل الخليفة المنصور سنة ١٤٦هـ، فأرسل إلى الإمام مالك وقال: "أنت الذى يفتى فى الإكراه وإبطال البيعة؟" فجرده من ملابسه وضربه مائة سوط حتى خلع كتفه، وظل الإمام حتى وافته المنية وهو لا يقدر على أن يَزِرَّ زِرَّهُ بيده اليسرى من آثار شدة الضرب.[2]

صور خرافية:

والآن نعود إلى الصور الخرافية التى صورها طه حسين للمحصنات العفيفات من نساء المسلمين اللاتى قطعن مئات الأميال على ظهور الجمال ابتغاء أداء فريضة الحج. إنهن فى خيال طه حسين لم يقطعن الفيافى والقفار للحج! كلا إنهن فعلن ذلك لكى

---

(١) تاريخ الطبرى؛ جـ٩ ص ٢٠٦.

(٢) مناقب الشافعى لابن أبى حاتم الرازى؛ ص ٢٠٤. مكتبة التراث الإسلامى، سوريا، حلب، دون تاريخ.

يفزن بالعاشق الخرافى الشاعر ابن أبى ربيعة! ونحن نعلم أن كل امرأة تحج معها محرم، والحكمة من وراء ذلك صون النساء عن أطماع الفجار والفساق فى خلاء الطريق. ولكن طه حسين يتجاهل ذلك، فيصور الآباء والأشقاء والأزواج الذين يرافقون أهليهم فى صورة القوادين! فالزوج ديّوث، والأب ديّوث والأخ ديّوث، يقدم أهله هدية لعمر ابن أبى ربيعة، يتفحصهن، **وينتقى ما طاب له منهن لكى يقابلهن بعد ذلك فى الطواف..أجل فى الطواف.. فى الطواف!!!** ثم يتفق معهن على أن يتم الحديث بعيداً عن الحرم!!! وبعض الحاجّات كن يتربصن ذلك العاشق الخرافى العجيب! فلم يكن هناك رجال شرفاء، أعِفّاء، أهل غيرة وحمية، مع أولئك الحاجات، ولم يكن هناك عشاق سوى ذلك الرجل الخرافى المدعو عمر بن أبى ربيعة!!

ولم تكن لبيت الله الحرام كرامة عند أولئك النسوة الساقطات، ولا عند محارمهن من الرجال الساقطين! لقد صارت مكة كلها والحرم كله، و"منى" و"عرفات" و"مزدلفة" كل تلك الأماكن المقدسة مستباحة لعمر بن أبى ربيعة. برضا رجال المسلمين وموافقتهم!

هذه هى سلسلة الأخطاء المتوالية التى ذهب إليها خيال طه حسين المريض الجامح، وهذا هو العلم الموضوعى الذى أنتجه منهج الشك الديكارتى! وهو كما ترى صورة لنساء فرنسا ورجالاتها أسقطها الكاتب على نساء المسلمين، استناداً إلى كتاب الأغانى للأصفهانى، الذى يقرر طه حسين نفسه أنه ليس المصدر الذى يعتمد عليه.(١) أما المصادر الأخرى المحترمة فتقول شيئاً آخر يناقض هذا الخيال. فلقد وقف الخلفاء بالمرصاد للشعراء المجان الذين قالوا أبياتاً – ولم يمارسوا أفعالاً– وذكروا فيها الجميلات من الحاجّات اللاتى كشفن وجوههن فى أثناء الطواف. فنفى عمر بن عبد العزيز – ﷺ – "الأحوص" الشاعر، وكاد عمر بن أبى ربيعة أن يلقى المصير نفسه لولا أنه أقسم أغلظ الأيمان ألا يعود إلى ذلك الشعر المسف القبيح. أما أن يقترب رجل غريب من هودج النساء فى الطريق فتلك – لعمر الحق – تطير فيها الرؤوس وتسفك فيها الدماء! وإذا كانت بعض الأبيات التى تمس كرامة الحرم الشريف قد أدت "بالأحوص" إلى المنفى، فماذا كان يكون مصير عمر بن أبى ربيعة وصبيانه

(١) حديث الأربعاء؛ جـ١ ص١٩١.

لو أنهم تعرضوا للنساء فى القوافل أو احتكوا بهن فى الطواف، أو فى "منى" ؟! لم يحاول طه حسين أن يطرح مثل هذا السؤال، ولو أنه طرحه لظهرت الحقيقة، وبددت كل الخيالات المريضة!

والسؤال الآن هو: لماذا فعل طه حسين ما فعل؟ وما الغاية من وراء تلك الخيالات الجامحة؟ نحن لم نطلع على ضمير الرجل ولم نفتش فى قلبه، وهو لم يعلن عن غايته بنفسه، فلا يبقى لنا إلا التخمين استناداً إلى كلامه، وإلى مواقفه المعروفة المعلنة. فهو قد أعلن أن علينا أن نتبع الغرب وثقافته ونظمه.(١) وهو يسعى إلى إقناع الشعوب المسلمة بالتخلى عن ثقافتها وإحلال الثقافة الأوروبية محلها، ومن أجل هذا الغرض لابد أن يهون من قيمة ثقافتنا، وأن يعلى من قيمة الثقافة الأوروبية "بخيرها وشرها" كما قال هو نفسه فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر". وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن نفهم غايته من الطعن فى أبناء المهاجرين والأنصار واتهامه لعلماء الإسلام، وتشويه صورة الحرم المكى الشريف وإسقاط كرامته، والتحقير من أخلاق ضيوفه من الحجاج، **فهذا كله يصب فى خانة الثقافة البديلة التى يراد لنا أن نتخذها، ونحن لن نتخذها إلا إذا نبذنا ثقافتنا، ونحن لن ننبذ ثقافتنا إلا إذا اقتنعنا بأنها ثقافة كلامية لفظية لا تنتج أثراً ذا بال فى السلوك الفردى والاجتماعى**، فالعلماء والفقهاء والمفسرون منافقون، وأبناء المهاجرين والأنصار أهل عبث وفسق ومجون، وحجاج بيت الله زناة وزانيات يمارسون الفحشاء فى مكة نفسها ويأتون من أطراف الأرض وأقاصيها بغية مقارفة الرذيلة والفحشاء مع عمر بن أبى ربيعة!

● هذا ما أرى أنه الغاية من وراء خيالات طه حسين الجامحة التى عرضت لها هنا. وقد أكون مخطئاً، فهل من باحث محب لطه حسين أن يتناول الموضوع ويبين لنا الخطأ؟ إنا لمنتظرون، والله تعالى من وراء القصد.

* * *

---

(١) انظر كتابه: مستقبل الثقافة فى مصر.